Al-Qasemi Journal of Islamic Studies, **volume 5, Issue 1 (2020), 37-60**

أنموذج من الشعر الصوفيّ

الشعر والشعراء في الطريقة الشاذليّة اليشرطيّة[1]

أحمد أبو الهوى[2]

تصدير

أودّ أن أبيّن في هذا البحث أنّ الشعر الصوفيّ -وأخصّ أشعار أبناء الطريقة الشاذليّة اليشرطيّة- هو من أرقى الأشعار ذوقًا وحسًّا ومعنىً، وأنّه يعكس نظرة فلسفيّة للوجود وللكون والحياة، فهو يرسم أسلوبًا لحياة روحيّة، واجتماعيّة مثاليّة، توفّر الأمن والحياة الكريمة السعيدة للفرد وللمجتمعات البشريّة. سأتّخذ مقتطفات من أشعار أبناء الطريقة الشاذليّة اليشرطيّة الصوفيّة، نموذجًا من الأشعار الصوفيّة، يرسم أسلوب هذه الحياة ويحدّد لأبناء الطريقة سلوكهم، وذلك من خلال قصائد أبناء الطريقة الّتي جُمعت في كتاب عنوانه: **اللطائف الروحيّة لأبناء الطريقة الشاذليّة اليشرطيّة**.[3]

---

[1] الطريقة الشاذليّة اليشرطيّة، أسسها الشيخ علي نور الدين اليشرطيّ، في مدينة عكا بفلسطين، لدى وصوله إليها سنة 1850، مهاجرا من بلده بنزرت في تونس الغرب.

Refer to: Essay on Yashrutiyah, by Ahmad Abul-Hawa, Al-Qāsimī Journal of Islamic Studies Volume 2- issue 1 2017

[2] م. أحمد محمّد أبو الهوى: مولود في 16 أكتوبر 1935، في بلدة الطور (جبل الزيتون)، القدس، فلسطين. الدراسة الثانويّة: الكليّة الرشيديّة في القدس، ومدرسة الفرندز للصبيان في رام الله، فلسطين. حصل على بكالوريوس في الهندسة المدنيّة: الجامعة الأمريكيّة ببيروت، لبنان، حزيران 1959. حصل على شهادة: ماجستير في الآداب: جامعة برلين الحرّة، برلين، ألمانيا، مارس 2017. حصل على شهادة ماجستير في الفلسفة في الإسلام: جامعة القدس، القدس، فلسطين، مايو 2017.

[3] ابناء الطريقة الشاذليّة اليشرطيّة، اللطائف الروحيّة، بيروت: مطبعة الإنصاف، د. ت.

وقبل أن أكتب في أشعار الطريقة الشاذليّة اليشرطيّة، أكتب باختصار عن تطوّر الشعر الصوفيّ مع التصوّف، متعرّضًا لِنُبَذٍ من أشعار كبار الصوفيّين.

تطوّر الشعر الصوفيّ مع تطوّر التصوّف

يلاحظ أنّ الشعر الصوفيّ قد واكب التصوّف في تطوّره، فحين كان التصوّف في بدايته يتضمّن مفاهيم زهديّة أخلاقيّة وَعْظِيّة، كانت الأشعار تتمحور حول الزهد في الدنيا وأحوالها، والعكوف على الخلوة ومحبّة الله. ومن الأكثر شيوعًا بين الباحثين، هو أنّ البداية الحقيقيّة للتصوّف كنمط متفرّد من التقرّب إلى الله كان إبّان القرنين الثاني والثالث الهجريّين، وهما القرنان اللّذان شهدا ميلاد الشعر الصوفيّ، متمثّلًا في رابعة العدويّة، وسِمْنون المُحِبّ. وما أن جاء القرن السادس الهجريّ حتّى كان الشعر هو أكثر أدوات التعبير الصوفيّ شيوعًا. إنّ أكثر ما يتميّز به شعر الصوفيّين هو الحبّ الصوفيّ؛ حيث يتّخذ شاعر الحبّ الصوفيّ من الذات الإلهيّة موضوعًا يدور حوله، وفيه يتجسّد الحبّ الإلهيّ الغامر، فيصف الصوفيّ فيه الحبّ ولَذَّتَه، وما يجده من لوعة وأسًى أو قربٍ ووصال، وما يمرّ به من مقامات وأحوال ومجاهدة مستمرّة للنفس، وما يتعرّض له من فيض ربّانيّ وإلهام قلبيّ وسموّ روحيّ، وأذكر هنا خمسة من شعرائهم المشهورين:

رابعة العدويّة[4] (100هـ / 717م - 180هـ / 796م)

من أشهر قصائدها قصيدة "عرفت الهوى"، وهي قصيدة في المحبّة والشوق والجوى والشكر والحمد، وفي نسبة الفعل إلى الله في جميع تلك الأحوال والمقامات:

عرفت الهوى مذ عرفت هواك ... وأغلقت قلبي عمّن سواك
وقمت أناجيك يا من ترى ... خفايا القلوب ولسنا نراك

[4] شاعرة صوفيّة مشهورة، ولدت في البصرة، ويقال أنها ماتت ودفنت فيها، ولها ضريح ومقام في طور زيتا أو الطور أو جبل الزيتون، من ضواحي القدس الشريف. وهي أول من انتقل بالتصوّف من مرحلة الزهد إلى مرحلة العشق الإلهيّ، ولقبت بشهيدة العشق الإلهيّ.

أحبّـــك حبّيـــن: حبّ الهـــوى وحـبًّـا لأنّـك أهـــــلٌ لـذاك
فـأمّـا الّـذي هـــو حبّ الهـــوى فشـــغلي بـذكـرك عـمّـن ســواك
وأمّـا الّـذي أنـت أهـل لـه فكشـفـك لي الحُجُـبَ حتّى أراك
فـلا الـحـمـد في ذا ولا ذاك لي ولـكـن لـك الـحـمـد في ذا وذاك
وأشـتـاقك شـوقين: شـوق النوى وشـوقًـا لقرب الحمى من حمـاك
فـأمّـا الّـذي هو شـــوق النوى فـمسـرى الـدمـوع لـطـول نَـواك
وأمّـا اشـتـيـاقي لـقـرب الـحـمى فـنـارُ حـيـاةٍ خـبـت في ضـيـاك
ولسـت على الشـجو أشـكو الهوى رضـيـت بمـا شـئـت لي في هـداكا

سمنون المحبّ[5] (ت 298 هـ)

تدور أشعاره حول محبّته لله تعالى، وحول الهوى والجفا، والصبر والرجا، والوجد والعتاب، والشوق والوصال، والبين والبكاء، والعذاب والصبابة. يقول في باب العتاب والبسط والقبض:

يعـاتـبني فـيـنـبسـط انـقـبـاضـي وتسـكنُ روعتي عـند العـتاب
جرى فِيَّ الهوى مـذ كـنـت طفـلًا فـمـالي قـد كبرت على التصـابي

وأمّا في البكاء والعذاب والوجد والشوق فيقول:

بكيـتُ ودمع الـعين لـلـنـفس راحـةٌ ولكنّ دمعَ الشـوق ينكى بـه القلبُ
فلو قيـل لي من أنـت قلـت معـذَّبٌ بنار مواجيـدٍ يُضـرمها العُـتب
بُليـت بمن لا أسـتطيع عـتـابَـه ويعـتبني حتّى يُقـال لي الـذنـب

[5] أبو الحسن سمنون بن حمزة الخواص، عاش في بغداد، وصحب السري السقطي، ومحمّد بن علي القصاب، من جلة مشايخ بغداد وأكابر صوفيّتها.

السهروردي المقتول[6] (549-587هـ)

شهاب الدين السهروردي، شاعر فيلسوف. له أشعار رائعة تفيض رقّة وعذوبة في إطار فلسفيّ وروحانيّ. من قصائده الشائعة قصيدته الّتي عنوانها: "وا رحمةً للعاشقين"، يقول فيها:

أَبـدًا تَحِـنُّ إِلَـيْـكُمُ الأَرواحُ ... وَوِصـالُـكُـم رَيـحـانُـهـا وَالـراح
وَقُلوبُ أَهـلِ وِدادكم تَشـتـاقُكُم ... وَإِلى لَـذيـذِ لـقـائـكـم تَـرتـاحُ
وَا رَحمـةً للعـاشِـقـيـنَ تَكلّفوا ... سـرّ المَحـبّـةِ وَالـهَـوى فَضّـاحُ
أهل الهوى قسـمان: قسـمٌ منهمُ ... كتـموا، وقسـمٌ بـالمحبّـة بـاحـوا
فالبائحون بسـرّهم شـربوا الهوى ... صـرفًـا فهزهم الغـرام فبـاحوا
والكاتمون لِسِـرِّهِم شـربوا الهوى ... ممـزوجـةً فـحَـمـتْهـمُ الأقـداحُ
بِالسـرِّ إِن باحُـوا تُـباحُ دِماؤُهم ... وَكَـذا دِمـاءُ الـعـاشِـقـيـنَ تُـبـاحُ
وَإِذا هُـمُ كَـتَـمـوا تَـحَـدّث عَـنهُـم ... عِـنـدَ الـوشـاةِ المَـدمعُ السَـفّـاحُ
لا ذَنـبَ لِلعُشّـاقِ إِن غَلَبَ الهَوى ... كِتـمـانَهُم فَـنـمـا الـغَـرامُ فَـبـاحـوا
مَـن بـاحَ بَـيـنَهُـم بِـذِكـرِ حَـبـيـبِـهِ ... دَمُـهُ حـلالٌ لِـلسّـيـوفِ مُـبـاح

ابن الفارض (1181م-1234م):

ومن المحبّين، سلطان العاشقين، عمر بن الفارض. من روائع شعره الصوفيّ التائيّة الكبرى المسمّاة "نظم السلوك". أذكر منها هذه الأبيات:

ومـا ظـفـرت بالـودّ روح مراحـة ... ولا بالولا نفـسٌ صفا العيـشِ ودّتِ
وأين الصـفا هيهات من عيش عاشـق ... وَجَنَّـةُ عَـدنٍ بالمكـاره حُـفَّـت
وعن مذهبي في الحبّ مالـي مذهب ... وإن مِلْتُ يومًا عنه فارقت ملّتـي

[6] شهاب الدين السهروردي، ولد في سُهرَورد، وأتهم بالزندقة والكفر وقُتِلَ وهو لم يتجاوز الثامنة والثلاثين. ترك للمكتبة العربيّة والصوفيّة نحو 49 كتاباً معظمها في التصوّف. وأهم إبداعاته، كتاب **حكمة الاشراق** الّذي ضمنه فلسفته: "الاشراقيّة" في التصوّف. وهي امتداد للسلسلة الّتي بدأها الحلاج.

ولـو خـطـرت لي في ســـــواك إرادة على خاطري ســهوًا قضـيت بِرِدَّتِي
لك الحكم في أمري فما شئت فاصْنَعِ فلم تك إلّا فيك لا عنـــــك رغبتي

ويقول في إحدى قصائده أنّه يحمل لواء العاشقين جميعًا:

كلّ من في حـمـاك يهـواك لـكـن أنـا وحـدي بـكـلّ مـن في حـمـاك
فقت أهْلَ الجمال حســنًا وســنًّا فَـــبِهِمْ فـاقـةٌ إلى معـــنـــاك
يحشر العاشقون تحت لوائـــــي وجـمـيـع المـلاحِ تـحـت لـواك

محيي الدين بن عربي (558 هـ- 638 هـ)

من قصائده المشهورة قصيدته الّتي تصرّح بشهوده القلبيّ للوحدة، وبقبول جميع المذاهب والأديان والأفكار:

لقـد كنـت قبـل اليوم أنكر صـــاحبي إذا لـم يـكـن ديـني إلى ديـنـه داني
لقد صـارَ قلـــبي قابلًا كلّ صـــــورةٍ فـــمرعًى لغـــزلانٍ ودَيرٌ لرُهـبَـانِ
وبيتٌ لأوثـــانٍ وكعـــبةُ طـائـــفٍ وألـــواحُ تـــوراةٍ ومصـحـفُ قـــرآن
أديـنُ بدينِ الحـــبِّ أنّى توجّـهـتْ ركـــائـــبهُ، فالحبُّ ديـــني وإيـــمَاني

الشعر والشعراء في الطريقة الشاذليّة اليشرطيّة

كثيرٌ من شعراء الطريقة لم ينظموا الشعر قبل أن ينتسبوا إلى الطريقة، ومنهم مُكثِرٌ ومنهم مُقِلٌّ. ويبدو جليًّا أنّ محبّتهم للشيخ قد أشعلت نيران المحبّة في قلوبهم، ففاضت منها ينابيع من عيون الشعر. سأكتفي بذكر سيرة بعض الشعراء، مع نبذة من عيون قصائدهم ومنظوماتهم.

الشيخ عبد القادر الحمصيّ الدمشقيّ

ظهر في دمشق -مع انتشار الطريقة هناك- شعراء كُثُرٌ من بين المنتسبين للطريقة، منهم شاعر صوفيّ كبير، هو الشيخ عبد القادر الحمصيّ الدمشقيّ. كان الشيخ عبده مقرئًا ضريرًا، يجيد

علوم التجويد ويتقن علوم النغمات والألحان؛ لكنّه لم ينظم الشعر قبل تصوّفه وانتسابه للطريقة الشاذليّة اليشرطيّة؛ فلمّا تشرّف بأخذها جاءه الإلهام بمدد روحيّ، فنظم الشعر الصوفيّ، ووضع لأناشيده ألحانًا توافق المعنى. وقد نظم منظوماتٍ صوفيّة رائعة في بيان أركان الطريقة وأحكامها، وفي مدح الشيخ علي نور الدين اليشرطيّ. وردّد أبناء الطريقة هذه الأناشيد في كلّ مكان، فكانت من العوامل الجذّابة الداعيّة إلى التصوّف. وقد ألّف **قصّة المولد النبويّ الشريف** وأناشيدها، فجاءت آية في المعاني الصوفيّة والإبداع الروحيّ.

يتوجّه في قصيدته (اللاميّة) بالمديح لشيخه، وذكر تَبَحُّر الشيخ بعلوم الشريعة والحقيقة، فقال:

شـمس الكمال هلال الدين مرشـدنا بحر الحقيقـة بَـرُّ العلـم والعمـل[7]
أرض الخضوع سماء الفخر نجم هدى طُورُ المناجاة سـحب الوابل الهطل
قدس المحبّين بيت الله مـكّـتـنـا صـفـا وزمزمُ نور القلـب والمقـل
هديي رشـادي كمالي قدوتي سـندي ذخـري ملاذي يـقـيني ملّـتي أملي

فالشيخ، عند المريدين، هو بحر الحقيقة وبَرُّ العلم والعمل، وهو قائد ركب العائذين بالله والسائرين إليه، وهو طورُ المناجاة وقدس المحبّين؛ والفقير السالك لا ينسب لنفسه علمًا ولا عملًا، فهو يخلع رداء العلم والعمل، وهو ما يسمّى بخلع النعلين. يقول الشيخ عبده الحمصيّ في هذا المقام:

جعلتـه في الملا قصـدي ومعتمـدي وقـد خلعـت رداء العلـم والعـمـل

ولا يفوت الشيخ عبده وجود اعتراضات على التصوّف وأصحابه، فيقول لعاذله:

دع عنك عَـذْلي، فما أُذني بصـاغيّة يـا عـاذلي لا ولا قـلـبي بـمـنـعـزل

[7] أبناء الطريقة الشاذليّة اليشرطيّة، اللطائف الروحيّة، بيروت: مطبعة الإنصاف، 57.

فهو ثابت على عهده ومحبّته وطريقته. كما طالب الشيخ علي نور الدين فقراءه بالثبات: "لا تقل علومًا، لا تقل معارف، أنا ما عندي إلّا الثبوت".[8] ومحبّة الفقراء لشيخهم هي محبّة أزليّة، ومشهدهم هو شيخهم فيقول:

أرواحُنا أزلًا في حُبِّه طُبعت ... فلو علمت عذولي جزتَ عن عَذلي
وهذه شمس ذات الحقّ قد ظهرت ... فانهض إليها بلا خوف ولا وجل
تلقى كؤوس الصفا بالأنس قد مزجت ... ومشهد القوم في تلك الكؤوس عَلِي
حجّت إليها أولوا الألباب مسرعة ... وفاقد الطلب ردَّتْه يد الفشل
رأيتُ منها الّذي لو شئتُ أظهره ... لبادر الناس في قتلي على عجل

وفي البيت الأخير من هذه الفقرة، يقول إنه رأى من الشيخ أمورًا روحيّة، لو أظهرها لأباح الناس دمه. وهو العلم الّذي كنّى عنه الإمام أبو حامد الغزاليّ بأنّه: "العلم المضنون به على غير أهله". وذلك هو عين ما ورد عن زين العابدين، عليّ بن الحسين، أنّه قال:

إنّي لأكتم من عِلمي جواهره ... كي لا يرى الحقَّ ذو جهل فيُفتتنا
يا رُبَّ جوهرِ علمٍ لو أبوح به ... لَقِيل لي أنت مِمَّن يعبد الوثنا
ولاستحلّ رجال مسلمون دمي ... يرون أقبحَ ما يأتونه حَسنا

ويحرص الشعراء الصوفيّون على ختم قصائدهم بالصلاة على النبيّ، عملًا بالحديث الشريف: " كلّ أمر ذي بال لا يختم بالصلاة على النبيّ فهو أبتر"،[9] أي مقطوع أو ناقص، فيختم قصيدته بقوله:

ثمّ الصلاة على مَن كان قائدنا ... حقًّا لِحُبِّ الإلهِ الواحد الأزلي

أما في رائعة الشيخ عبده الحمصيّ الّتي مطلعها:

[8] فاطمة اليشرطيّة، نفحات الحق في الأنفاس العليّة الشاذليّة اليشرطيّة. ط.4. د. م.: د. ن.، 137.

[9] حديث مختلف فيه، وأنا أقطع فيه الرأي أنه صحيح.

كـلّ مـا في الـكـون يـعـني وجـهَ مـولانـا الـجـمـيـل[10]

فتكاد تلمس ما سُمِّيَ وحدةَ الوجود، وهو ما ينكر على المتصوّفين؛ بينما هو عند الشيخ اليشرطيّ وحدةُ الشهود المحمّديّ. وفي ذلك يقول الشيخ اليشرطيّ: "وَحدةُ الشهود، لا يحصل عليها أيّ إنسان، فهي للأنبياء والأصفياء".[11] وهذه الوحدة هي وحدة الشهود المحمّديّ، كما في قول الشيخ اليشرطيّ: "أنا ما عندي إلّا محمّد. شهودي محمّديّ، وأكلي محمّديّ، وشربي محمّديّ".[12]

وفي قصيدته هذه يقول الشيخ عبد القادر الحمصيّ:

كـلّ مـا في الـكـون يـعـني وجـهَ مـولانـا الـجـمـيـل
فـهـو يُـقصِـي ثـم يُـدْنـي بـعـــــذول وخـلـيـــــل
قـد شـــــربـنـا في حـمـاه خـمـرَ تـوحـيـد الـوجـود
واكـتـفـيـنـا فـي هـواه عـن ســواه بـالشـهـود
لـو رأى الـكـون ضـيـاه غـاب عـن كـلّ الـحـدود
بـجـمـال لـو تـبـــــدّى لـلـمـلا أشـفـى الـعـلـيـل

ويبيّن الشيخ عبد القادر أنّ الطريق إلى المعرفة لا تسير في خطّ واحد أو مسار وحيد، فيطلب من الفقراء ما أوصى يعقوبُ بنيه: {يا بَنِيَّ لا تدخلوا من باب واحد، وادخلوا من أبواب متفرّقة}،[13] فيقول:

فخـذ الســير يمينًـا يـا خليلي ويســـار كي ترى في جنح ليـل مـا تراه بـالنهـار
وارفع الأستار وانظر فالمُنى خلف الستار وبذاك السَّفْحِ نادي ما على المحسن سبيل
فاقرأ الآيات تشـهـد للمعاني الممكنات إذ بها المعنى المجرّد عن حروفٍ وصفات

[10] اللطائف الروحيّة، 59.

[11] فاطمة اليشرطيّة، نفحات الحق في الأنفاس العليّة الشاذليّة اليشرطيّة، 167.

[12] المصدر السابق، 316.

[13] سورة يوسف – 67.

فالموحّد للموحّد آلةٌ تدعى الذوات حبّذا صبغةُ ثوبٍ قد تسمّت بالجليل
إنّ ليل الجمع أسفر عن جمال العالمين ونهارُ الفرق أظهر نورَ أصحاب اليقين
غِبْ عن الأكوان تظفر بكنوز العارفين واشهد الأمر المُسَطَّر واصفح الصفح الجميل
يا بدورًا قد تجلّت في زمان الاصطفاء وبأرض القدس حلّت من سناها الكونُ ضاء
فتدانت وتدلّت للبقا بعد الفناء وقيودَ الوهم حَلَّت ولها الباعُ الطويل

أمّا في رباعيّته الّتي مطلعها "طوبى لكم يا شاذليّة"،[14] فيقول الشيخ عبده:

طوبى لكم يا شاذليّة أشرق الصباح هذي كؤوس اليشرطيّة كلّها فلاح
يا عاذلي، شربُ الحميا في الهوى مُباح فالْبِسْ على ضوء الثريّا ذلك الحلي
إن واصلوني أو جفوني عِندي بالسَّوا أو أنكروا عنّي شجوني كان لي دوا
فاقرأ لِآيِ الماعون يا أخا الهوى تهدى على السرّ المصون فادْنُ وانجلي
من شمس أرواح البرايا نالني الهدى من بعد ما شخص العطايا مَدَّ لي يدا
لا تحسبوني يا مرايا أنَّنِي سُدى يدري بأرباب المزايا عارفٌ وَلِي
قولوا لأرباب الحُضُور وَقْتُكم حَكَم آن أويقات الظهور جَرِّدوا الهِمَم
وقد تجلّى بالسرور صاحبُ القَدَم ينزلكم يوم النشور خيرَ منزل

وفي نشيدة "بدر المنى لمّا دنا زال العنا"،[15] يقول في مدح شيخِه الوارثِ المحمّديّ:

يا هِلالًا لاحَ مِن أُمِّ القرى نَوَّرَ العرشَ وأطباقَ الثرى
يا لقومي هل سمعتم في الورى مثلَه مَنْ يجعلُ الفَقْرَ غِنى
صار دهري كلّه فيه سرور مُذْ حَباني بعد غَيبي بالحضور
نقطة الباء[16] الّتي منها السطور ظهرت بعد الخفا في عصرنا

[14] اللطائف الروحيّة، 18.

[15] المصدر السابق، 32.

[16] ولنقطة "الباء" سرها وشأنها عند أهل التصوّف، فقد ذكرها الشيخ عبد الكريم الجيلي، في كتابه "الكشف الرقيم في شرح بسم اللّه الرحمن الرحيم" فقال: "ورد في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (كل

ومن النسبة الأزليّة للفقير بشيخه انفتح له باب الشهود، وبفنائه في شيخه عن نفسه وذاته، فلم يبق "حيٌّ" سوى الحقيقة النورانيّة للذات المحمّديّة، فيقول:

حقّقت لي نسبتي علمَ اليقين ... أزلًا قبل وجود العالَمين
من شذاها صار كلُّ العارفين ... يَشْهدون الحَقّ في دار الفنا
أظهر الله بها كلّ المنح ... مذ عليّ القدر للباب فتح
وعَلينا قَد تجلّى بالفرح ... بعدما زال السّوى من حيِّنا
أشرقت من جانب الطور القديم ... أدهشت من نورها موسى الكليم
عاد منها كلّ شَيء كالرميم ... ما بقي حيًّا سِواها عِندنا
وِرْدُنا في ذكرها لاح القمر ... شُرْبُنا من عَيْنِها مَحْوُ الأثر
فعلنا في شرعها عين القدر ... علمها في سرّنا منّا لنا

وله أيضًا هذه القصيدة:

هلال الهدى قد لاح فبادر ذوي الدين صبوت به يا صاح من قبل تكويني[17]
تجلّى على الأكوان عِيانًا بلا سَتر فيا ربّة العرفان ها ليلة القدر
عبيرُ الحمى قد فاح من جانب الغرب فصرنا به أرواح من عالم الغيب
ولولا العليّ ما كان فؤادي يناجيني فيا نسخة الأكوان للقرب ناديني
نسيمَ الصَّبا بالله إن جئت خلّاني فقل يا أهيل الجاه رفقًا بولهان
صلاة من الغفّار حُلاها من الجوهر على معدن الأسرار من للهدى أظهر
سناه ضيا الأبصار من خُصَّ بالكوثر مدى الدهر في ما ربّنا يُذكر
كذا آلِهِ الأطهار مع صحبه الأخيار خصوصًا رفيق صديقه الأكبر

ما في الكتب المنزلة فهو في القرآن. وكل ما في القرآن فهو في الفاتحة. وكل ما في الفاتحة فهو في (بسم اللّه الرحمن الرحيم). وكل ما في بسم اللّه الرحمن الرحيم، فهو في النقطة الّتي تحت الباء).

[17] أبناء الطريقة الشاذليّة اليشرطيّة، اللطائف الروحيّة، 55.

وله القصيدة الرائعة التالية الّتي مطلعها "يا نبيّ الحسن آمنّا بما أعربت عيناك عند النعس"، يستهلّها بكلمات رقيقة معبّرة، يذكر فيها الأنبياء والمزايا الّتي خصّهم الله بها، بدأً بسيّدهم محمّد، ودعاه " نبيَّ الحسن"، ثم ثنّى بإبراهيم خليل الروح، وموسى الفؤاد، إلى عيسى مسيح الوقت الّذي بلمسته يشفي الأسقام، ويَحيى بلمسته القلبَ والفؤادَ؛ وكلّ هذه المزايا تجمّعت في محمّد الوقت والأزمان:

يا نبيّ الحُسْنِ آمَنّا بما ... أعربت عيناك عند النعس[18]
صِلْ بخالٍ أيدَ الخدّ كما ... أيّد الروح بروح القدس
يا خليل الروح يا موسى الفؤاد ... يا سليمانَ المزايا والنّعَم
أنت الياس حياتي والمراد ... أنت لقمان شِفائي والحكم
يوسفَ الحسن إليّ كم ذا البعاد ... صار يعقوب اصطباري في عدم
ما كفى أيّوبُ جسمي سقما ... يا مسيح الوقت جد بالملمس
علّ أن يحيا فؤادي بعدما ... خضِرُ الشعر قضى في يبس

ثم يغوص الشاعر في غزلات صوفيّة تنزّه الحقّ عن التنزيه والتشبيه، فيقول:

ظبيّ أُنْسٍ قدّه يحكي القنا ... ذو اعتدالٍ وجمالٍ وضيا
إن مشى يهتزُّ لِينًا أو رنا ... سلَّ من ألحاظه سيف القضا
ثغره أوقع قلبي في العنا ... ولماه منه لي نعم الدوا
خّده النادي عليه رُسِمَ ... بمداد الحسن للملتمس
كلّ من يقرب هذا رُجِمَ ... بشهابٍ من نجوم الحرس
يا رشيق القدّ يا غصن النقا ... يا قضيبًا زانَه لِينُ القوام
سهم عينيك فؤادي مَزَّقَ ... كُفَّ سهمَ اللحْظِ يا بدر التمام
بجبينٍ فجره مُذْ أشرق ... بان فرق الصبح من ليل الظلام
زر مكاني يا حبيبي مثلما ... زرت قلبي بجمالٍ مُؤنِس

[18] المصدر السابق، 49.

أو فعللـني برشـــــف من لمـــى ثغـرِك النّـديّ الشهـيّ اللعـس
مَـــــنْ لِصَبٍّ قاده صرف القضا بحبال الـــذلّ للظبـيّ الأغَـــرّ
أســعر القلـب بنـيرانِ الغـضـا بـل بنـار الوجـد أدهـى وأمـــرّ
دهـــــر عمـــري في هواه قد مضى وأنـــا في حكمـــه أيـن المفـــرّ
حُبُّـه كـان قضـاءً مبـــــرمًـــا في ثبـــوتي قبـــل بَـدْء الأنفـــس
تتغـــذّى الـــــروح منـــــه كلّمـا لاح يـــزهـــــو بالجمال الأقـدس

ومن الإنصاف لحقّ الشاعر أن نورد قصيدته الّتي تفيض محبّة وعشقًا وحكمة وحقيقة، والّتي يقول فيها:

أشرقت شمسُ الحميّا من أيادي اليشرطيّة خمرة لمّا تجلّت أصبح الرائي نجيّا[19]
قام داعيها يُنادي منشدًا في كلّ نادي أين أربابُ الرشاد ينظروا ضوء الثريّا
يا عليّ القدر رفقاً أنّ قلبي ذاب عِشقًا والّذي ولّاك حقًا إنّني ميّتٌ حيّا
يا أخلاي اشربوها إنّ ساقيها أبوها من شذاها طيّبوها كعبةُ العشّاقِ ميّا
عَشِقَت ذاتي لِذاتي عندما حَقَّقْتُ ذاتي إنّني ماضٍ وآتٍ واحِدٌ لا شكّ فِيّا
نورها في الطور (نارا)[20] ظنّها الرّاؤون نارا حولها موسى أدار فغدا منها نَبِيّا
أنا سيّدٌ ثم عبد أنا إبْنٌ ثُم جَدٌ أنا جَمعٌ ثم فَردٌ كنت ميتًا صرتُ حيّا
وصلاة الله ربّي على روحي ثم قلبي أحمد من جاء ينبي عنه بالحقّ عليّ

وقال في نشيد آخر:

أنـت وجـدي وحيـــــاتي يـا عَلـــيّ أنت ســـرّ الله ذو الفضـل الجلّـــي[21]
أشــرقت شــمـــــس الكمال في الوجود حيّرت من نورهـا أهـــل الشهـــود
كـلّ مـن قـد ذاق مـعـنـاهـا يـعـود روحَ قـدسٍ بـعـد ذاك الـهـيـكـل
قربتنـــي بعـــدَ بُعـــدي لِلْمُنَـــى عَرّفـتـني بـعـد جهلـي من أنـــا

[19] المصدر السابق، 63.

[20] نارا بمعنى أنار وهي في الأصل نارَ.

[21] اللطائف الروحيّة، 47.

أشهـدتـني دار عكّـا ومِنـى ... وبَنَـتْ فـي طـور سـينـا منـزلـي
أنـت إدريـس العـلا بين العباد ... أنـت قِدْمًـا مـوسى الـرشـاد
أنـت عيسـى الروح جبريل الفؤاد ... أنـت صـديـقٌ لِطَـه المـرسـل
نـارت الأكـوان طُـرًّا منكـم ... وحديـث الخيـر يـروى عـنكـم
سـادتي بالمصـطفـى أرجـوكم ... كشـف ضـرّ فيـه جسمي قد بُلـي
وصـلاة الله تهـدى والسـلام ... لرسـول الله والآل الكـرام
وعلـى الأصحـاب ما ناح الحمـام ... سيّمـا الصـديق ذي القـدر الجلـي

وله النشيدة التالية:

يا إلهيّ بهم ... مُنَّ في قربهم ... حزت من حبّهم ... كلّ عزّ وشان[22]
نُورُ حبّي ظهر ... في جميع الصور ... يا أهيل النظر ... بادروا للمعان
يا أهيل الهوى ... زال عنّي السوى ... صار سمعي هو ... ويدي واللسان
كنت قبل السطور ... خافيًا في الصدور ... واجتباني للظهور ... من بحار البيان
همت في قبلتي ... داخلًا جنّتي ... بَشِّروا إخوتي ... صرت فرد الزمان
وحّدوا ربّكم ... حقّقوا قربكم ... مكّنوا حبّكم ... من عليّ الزمان

وقال في نشيدة أخرى:

بالمشهد العالي السّني ... دارت كؤوس الأصطفا ... والشمس لاحت تنثي ... في الكون من بعد الخفا
لمّا تجلّت في الوجود ... فكّت عن العبد القيود ... واستخلصت أهل الشهود ... والمبتلَى نالَ الشفا
أنت الإمام المُنتخب ... من عجمها ثمّ العرب ... هب أنّني أذنبت هب ... حسبي اعترافي وكفى

ومن أروع القصائد الّتي وردت على قلب الشيخ عبد القادر الحمصيّ هذه التائيّة، فقد استهلّها ببيان بيعته وصدقه في بيعته، وأنّ الحضرة استقرّت في قلبه بصدقه، ويشير إلى العلم الّذي عرفه بذلك الصدق، وأوردها هنا بكاملها لتتجلّى بروعتها وعمق معانيها وبعد مرامها:

[22] اللطائف الروحيّة، 13.

نعم، أثبتت ليلى عهودي ببيعتي ... وقد أرجعتني بعد صحوي لسكرتي[23]
ولمّا رأتني لا أميل إلى السّوى ... دنت من فؤادي واستمرّت بمهجتي
لليلي بها فجرٌ، وفجري بها ضحى ... ويومي بها دهرٌ، ودهري كلحظتي
ومن فوق ذا عِلمٌ يَدِقُّ عن الورى ... على أنّها أنّي وليست بصورتي
أموت فتُجْلَى ثمّ أحيا فتختفي ... بِبرقُعِها المعروف بالأحديّة
فمشهودةٌ في كُلّ عينٍ بصيرةٍ ... ومحجوبةٌ عن كُلِّ عينٍ بِصورة
لقد حيّرت ليلى عقول أولي النُّهى ... وبالملأ الأعلى كذاك بِحيرَة
نعم أسفرت حَقًّا عَن السّرِّ والخفا ... فعاينتُ نورَ الذات في كلّ ذرّة
مقدسّة الأوصاف عن وهم وريبة ... منزّهة بالحسن عن كلّ صورة
هي الجسم والأعضاء والدم والحشا ... هي العقل مِنّي والحواسُّ وصِبْغَتي
وفهمي وأفكاري ولفظي جميعه ... ومنعي وبذلي واتّساعي وضيقتي
وسكري وصحوي والشراب ومطربي ... وعربدتي ثمّ الغفول ويقظتي
وصبري وتصديقي وخوفي مع الرجا ... وضعفي على كلّ الوجوه وصحّتي
وعلمي وإيماني وشرعي ومذهبي ... وجهدي واعمالي وديني وملّتي
ودهري وأوقاتي وبدئي وعمدتي ... وحشري وميزاني وناري وجنّتي
هي الملك والملكوت والصورة الّتي ... بلاهوت ناسوت الوصال استقلّت
كعنوان نشوان لذاتي تنزّهت ... ونقطة باء أظهرت كلّ آيّة
وتلك لها شأن بديع وحضرة ... بها قامت الأشياء في صنع حكمة
بدت فاستضاء الكون نورًا وكان في ... ظروف ظلامٍ من عماء الهويّة
سريت بها ليلًا من المسجد الحرام إلى ... المسجد الأقصى بقدس الحقيقة
ركبت براق الحبّ من آل يشرط ... وصاحبني جبريل روح المحبّة
فآدمُ، توحيدي لديها، تَرْكُهُ ... وجئت سماء الأمن من غير عِلّة
طرقت سما العرفان، نفسي عرفتها ... وحقّقت فيها كلّ علم وحكمة

[23] اللطائف الروحيّة، 44.

سماءٌ من الإحسان، ثمّ دخلتها ... وفيها شُموسُ الكاملين تجلّت
دعتني سماءُ القرب، لمّا أتيتها ... تبرّأتُ من نفسي وحَولي وقوّتي
ومن بعدها، للوصل جرّدت همّة ... سماءً تسَمّت بالوصال المُثبِتِ
حسبي سماء الفرد، يا حبّذا الحمى ... وروحي بها دونَ الجميع اطمأنّتِ
وفي منتهى الآمال قد لاح عرشه ... وكرسيُّه، شيئان، قلبي ومهجتي
فثَمَّ سُتورٌ لا انتهاء لجمعها ... وأعظمها سبعون مِنْ غير شُبهةِ
وجودي وأوطاني وأهلي ونسبتي ... ومالي ومآلي وملكي وعادتي
وقاري وتعظيمي وشأني وبهجتي ... عبيدي وتلميذي ورأيي وحيرتي
وعلمي وتدبيري ودرسي وفخرتي ... شعوري وتأليفي وكسبي وحيلتي
نفاقي وإنفاقي، ريائي وسمعتي ... خضوعي وتقليدي وعُجبي ودعوتي
جمالي وإجمالي، كمالي وسطوتي ... كلامي وأوهامي وجهدي وقدرتي
حقوقي وتحقيقي، ذكائي مزيتي ... وزعمي وعرفاني وشِركي وريبتي
جدالي وخوضي واحتقاري ورغبتي ... فضولي وغلّي وانتقادي نميمتي
غروري وتزويري وظنّي وطيرتي ... وشتمي وإصراري وإهمال توبتي
وَشَكّي بأستاذي وتركي فريضتي ... وهجري لأرحامي وأهل طريقتي
وتزكيتي نفسي لأهل طهارة ... وميلي إلى الدنيا وحبّ رئاستي
ومن خلف تلك الحجب لاحت بوارق ... تشير لجمع الشمل بعد تشتّت
تذكّرت أوطاني فأدهشني اللقا ... فغبت به عن حال صحوي وسكرتي
وعند حضوري بُدّل الخوفُ بالرجا ... وفوق بساط الأنس شاهدت منيتي
فطوبى لقلبٍ إذْ أسَرَّ بسرّه ... وبشرى لِعَيْنٍ إذ برؤياه قَرَّتِ
وعند اهتمامي بالرجوع معارجًا ... بها أرتقي في كُلِّ يوم وليلة
ففي الصبح معراج إلى الحضرة الّتي ... بها نارت الأكوان من بعد ظلمة
ومنها رشاد العالمين إن اهتدت ... عليها ولا نهجٌ سِواها لقِبْلَةِ
وفي الظُهر معراجٌ إلى الرُتبة الّتي ... هي الماء حقًّا والوجود كثلجة

هي النفس روح والظلام بها ضيا ... وكم لي بها من لذّةٍ فوقَ لذَّة
وتيهُ ابن عِمران الكليمِ بِسوحِها ... وقد صار فيها كلُّ حَيٍّ وميِّت
وفي العصر معراجٌ إلى المستوى الّذي ... أفاض به حبّي على كلّ ذرّة
وفي كهفه للعارفين منازلٌ ... وفي ظلِّه كلّ الأنام استظلَّت
ولا خوف في هذا الجناب على امرِئٍ ... مطيعٍ سواءً كان أو ذي عصاوة
وفي المغرب القدّوس معراجٌ مقدِسيٌّ ... لذاتٍ تولّت كلّ سِرَّ حقيقة
وفيها مَنار العِزِّ والوهم والعلا ... ولا يجتني شذاها شخصٌ برخصة
ومعراج روحيّ في العِشاء لحضرةٍ ... أحاطت مع التنزيه في كُلِّ حضرة
هي الروح للأرواح والسِّرُّ للخفا ... هي المعدن المشهود في أصل فطرتي
دعاني غَرامي أن أموت بها ... دعاها الهوى قِدْمًا بِإحْياء صورتي
تريد فنائي بلْ أريد بقاءها ... فمِنّي أرادت حيث منها إرادتي
وعَمّا قليل يطرد الصبح للدّجى ... فأهوى بما تهوى وتقضي بِدعوتي
فتمّت معاريج الصلاة وبعدها ... سأشرع في تبيين باقي الفريضة
فصومي زكاتي ثمَّ حجّي ثلاثةٌ ... حضوري وتقديسي بِبَدْئي وعودتي
ولي مِن حِماها كلّ بارق لحظة ... شهودٌ وعِلْمٌ وارتقاءٌ لِرتْبة
خفاها الهوى عنّي وكنت مُضيّعًا ... ومُذْ فقْتُ عفت عن قصوري وزلّتي

الشيخ رشيد سنان الدمشقيّ

أحد كبراء علماء الشـريعة في دمشـق. تحدّث في قصـيدته اللاميّة عن الحقيقة المحمّديّة المنبثقة عنها أنوارُ العرش والكرسيّ ولوح الوجود؛ وتحدّث عن سريان أسماء الله في شهوده، وكيف غاب في ذلك الشـهود، فبذل النفس بتأدية فريضـة الزكاة؛ وكيف صـام عن كلّ السّوى؛ وأوضح أنّ عيده، بعد صومه، إنّما يكون برؤية حقيقة روحانيّة شيخه. وقد ألقاها بين يدي الشـيخ علي نور الدين، صـبيحة عيد الأضـحى،[24] في عكّا بفلسـطين، وعندما وصـل إلى قوله:

فـأنـا الّـذي بسـتـارهـا مُـتـعـلّـق ووريـث سـرّ في الـوجـود مكمّـل

تقدّم ولمس ثوب الشيخ علي نور الدين وتمسّك به. يبدأ قصيدته بمدح الرسول، ويقول إنّه النور الّذي منه برزت جميع المخلوقات من العرش والكرسـيّ إلى أصـغر ذرّة في الوجود، فيقول:

مَن مِـثـل أحمـد في المقام الأمثل خيرُ الورى ما القلب عنه بمُنْسَـل[25]
نورٌ تعَيَّـنَ قبْـلَ كلّ حقيقـة وحـقـائـق الأشـيـاء عـنـه تـنـجـلي
عرشٌ إلى الرحمن بالوصـف اسـتوى والـرفـرف الأعـلى المبرقـع بـالحـلي
والكرسـيّ والقلمُ الّـذي صـفَحـاتـه لـوحُ الـوجـودِ مـفصّـل في مـجـمـل

ويشرع في بيان المعنى الروحيّ لأركان الإسلام، من صلاة وصوم وزكاة والحجّ وشعائره:

فصـلاة فرض الصـبح في سـبحاته بشـهـود طـلـعـتـه بـطَـوْرِ تـنـقُّـل
تلك الصـلاة حقيقـةٌ لـمقـدّس وسواها في شـرع الغـرام تنفّـلي
يا فرض صـوم العارفين تنسُّـكًا وقفوا على سـرّ الحديث: "الصـوم لي"
في الصـوم سـرٌّ، دقّ معنى فَهْمِهِ عن غير طه الوقتِ أفضلِ مُـرسَـل

[24] اليشرطيّة، فاطمة، رحلة إلى الحق، ص 428.

[25] اللطائف الروحيّة، 80.

رمضان صومي اليوم عن كلّ السوى والعيد بعد الصوم رؤيتكم يلي
يا كعبة حجّت لها أرواحنا من قبل طينة آدم المتبتل
أحرمتُ في حجّي لقدس[26] جمالها وتركتُ أثواب السوى للعذّل
ووقفت في نسكي على عرفاتها جبل التعارف عنه لم أتحوّل
والروح منّي سبعة طافت بها وجنت ثمارَ الوصل بعد تفضّل
ومن الصفا تسعى الحقيقة بالصفا لبديعِ مَنْ يحلو عليه توكّلي
ويمين يُمن اليْمن ألقت في مِنًى جمراتِ جمر الخوف عند تحلّل
وذبحتُ ذبحَ الوهم مني صورةً بيد الخليل بحبه المتخلّل
وبذلت منّي النفس تأدية له فرْضَ الزكاة لها بغير تعلّل

وفي غمرة فرحته بانتسابه لشيخه وللطريقة يناشِد منشدَ الألحان أن يتغنّى بمناقب الشيخ، ويؤكّد أنّ شيخه هو مصدر الهداية إلى الحقّ؛ فالشيخ هو فرد الزمان وشمس الحقيقة وكنز أسرارها وفاتح مغلقها:

يا منشد الألحان شنّف مسمعي في حضرةٍ نبويّة بتجمّل
كرّر من الدرر البديعة منطقًا بأعزّ ما يحلو ونغمة بُلبل
فأنا الّذي بستارها متعلّقٌ ووريثِ سرٍّ في الوجود مكمّل
هو مرشدي الحسنيّ يرعى عهدها تاجُ الملاح التونسيّ هو العلي
غوثٌ سما أوجَ السما فطريقُه أسرار آيات الكتاب المنزّل
شمسُ الحقيقة كنز كلّ رقيقةٍ طرْفُ العواذل كان عنه بمعزل
فالوقتُ كسبٌ فاغتنم من وقته وخذ الهداية منه دون تململ
وهو الّذي يهدي الأنام لربّه وبه يصحّ مسير كلّ مؤهّل

[26] يعني البيت العتيق المقدس.

الشيخ نصوح الجابري الحلبي

الشيخ نصوح بن الحاج صدّيق الجابري، هو عالم من علماء مدينة حلب المرموقين، وهبه الله النفحة الشعريّة، ونظم العديد من القصائد والأناشيد ذات المعاني الرقيقة الراقية. تبدو الكلمات في قصيدته الّتي مطلعها "يا واحد الذات" ناطقة بوحدة الشهود:

يا واحد الذات ما ثمّ سواك موجود — وجودك الحقّ هو الشاهد وهو المشهود
قدّرت عبدًا، فواريت عن المعبود — مرآة ذاتك لأسمائك قضت بالجود
الناس هاموا بآلائك وصنعاتك — لكن سَبَتْهُم، فظنّوها سِوى ذاتك
وصورة الظنّ هي تبدو بمرآتك — حجبتهم عنك وهمًا، تلك آياتك
يا سعدَ عبدٍ تحقّق له الغنى بربّه — وأين يسعى فلا يشهد سوى حبّه
توحّد النور في عينه وفي قلبه — تساوت الحال، في بعده يرى قربه

ويشير في القصيدة التالية إلى: {إنّ الدين عند الله الإسلام}،[27] وأنّ التسليم والفناء هو الدين الحقّ:

أدناني الساقي أدناني — سلب عقلي وثبّت إيماني — أدناني مِنّي إليّ — من ذوقه دارَ الحميا
أسقاني كأس المنيّة — عندما مُتُّ دعاني — دعاني حين تجلّى — ظاهرًا في كلّ قِبلة
خرجت عن كلّ ملّة — حسبي إسلاميّ كفاني — إن تمحُ فامحُ الجميعا — وازْدُدْ للحقّ الوديعة
أو فاثبت عبدًا مطيعًا — واجْرِ في كلّ الأواني

[27] سورة آل عمران - 13

الشيخ حسن الحكيم الحلبي

من مدينة حلب. كان يشغل وظيفة رفيعة بمعيّة الوالي العثمانيّ، وبعد أن تشذّل جذبته الطريق، فنظم مجموعة من الأناشيد والموشّحات وبعض القصائد والقدود، وهذه واحدة من أناشيده:

يا نور فجر الإرشاد يا رحمة للعباد ما ثمّ إلاك هادي بالقول والأفعال
شرّفت كلّ البلاد يا معدن الكمال
أقمت السنّة والفرض وكاد الجدار ينقضّ بالبعض أصلحت البعض وجمّلت الأحوال
شرّفت كلّ البلاد يا معدن الكمال
قدرك عظيم لا يدرك والنور منك لا يترك وفي هواك ما أشرك قلبي ولست بسال
شرّفت كلّ البلاد يا معدن الكمال
في البدء ثمّ المنتهى صَلّوا على خير النهى مَنْ قَوْلُهُ إنّي لها في سائر الأحوال
شرّفت كلّ البلاد يا معدن الكمال

وهذه بعض أبيات من إحدى مقطوعاته، في العشق والفناء والوصول:

لَيْلُ الظَّلامِ انْجَلَى مِنْ بَعْدِ مَا جَنْ شرب المدام حلا من إبنة الدن[28]
أنَا الهوَى مَذْهَبِيْ أَخَذْتُهُ عَنْ أَبِي والهَتْكُ مِنْ مَشْرَبِي والْعِشْقُ لِي فَنْ
يَا سَالِبًا مُهْجَتِي يَا سَاكِبًا دَمْعَتِي رِفْقًا أيَا مُنْيَتِي فَالرِّفْقُ أَحْسَنْ
لمّا حَبِيبِي سَرَى لَيْلًا لئلّا يُرَى طَلَبْتُ أَنْ انْظُرَا فَقَالَ لِي لَنْ
إن رمت أن تعشقَ جماليَ المطلق إلى الفنا حققَ واحذر من الظن
صَلَّى إلهي عَلَى إِكْلِيلِ تَاجِ العُلَى وَالْصَّحْبِ مَعْ مَنْ تَلاَ مَا بُلْبُلٌ حَنّ

ومن أرقِّ القصائد في التوادد والتسامح سبيلًا للوصول إلى السعادة الحقيقيّة، يقول حسن الحكيم:

[28] اللطائف الروحيّة، 125.

كـلّ المـكـارم وُدُّ وحُـبُّ في الله لازم إن كنت تصـبو لا كان لائم كلا وعتبُ[29]
للمضـنى الهائم هواه ربُّ فاطرب خليلي بالله واصْـبُ فالعيش هذا سـواه لعبُ
من لـه ذوق ولـه لـبُّ يرى التصـابي في الله طِـبُّ دَعِ التعـانُـد فليس صـعـبُ
بـذلَ التوادد لمن تحـبّ ففي التواجـد وصـلٌ وقربُ كـلّ التبـاعـد كِبْرٌ وعُجْـبُ

الشيخ أحمد عبّاس الأزهريّ البيروتيّ

من كبار وجوه المجتمع الإسلاميّ في بيروت ولبنان. أنشأ الكليّة العثمانيّة الّتي حملت اسمه، حيث عرفت باسم "المدرسة الأزهريّة"، وقد قرض الشيخ أحمد عبّاس الشعر، فقال الكثير من القصائد والأناشيد الصوفيّة ذات المعاني الروحيّة الرفيعة، تعبّر عن نفسها:

بزغت شمس العرفان تتجلّى في الأكوان في مرآة الرحمن مولاي عليُّ الشان[30]
وبه تمّ الإيمان

راق أنسـي وعـلا نـجـم السـعـدِ وبشـمسـي قـد حـلا وجـدي
طـاب كـأسـي في هـوى هـذا الـفـرد مَـن عُـلاهُ جـلّ عـن حـدِّ
قـد حـلا لي في الـهـوى خـلـع الـعـذار ومَـحـا لـي ظُـلـمـة الأغـيـار
صـار حالـي فـيه للحقّ مدار ومـآلـي مـنشـأ الأسـرار
طـاف قـلبي في حمى البيـت المعمور وبِـلُـبّـي كـان دكُّ الـطُّـور
حال قربي فيه نـارٌ ثـمّ نـور وبـحُـبّـي تـمّ لـي الـحضـور
قد دعانـي للبقـا داعـي الفنـا وكسـانـي حُـلّـة الـهـنـا
بِـمـعـاني قـولـه أنـت أنـا وحـبـانـي غـايـة المُـنـى

[29] اللطائف الروحيّة، 133.

[30] اللطائف الروحيّة، 230.

وله النشـيدة التالية في مدح شـيخه، يسـأله أن يكشـف عنه الحجب، وأن يخلّصـه من شهود الأغيار:

ألا يا مُظهِرَ الأسـرار ومَجْلى الذات والأنوار تعطّف يا عليّ الشان وخلِّصنا من الأغيار[31]
فقلبـي نـار ودمعـي جار وفكـري حـار بنورٍ يُدهشُ الأبصار
شهِدنا الذات في مَرآك وإن جَلَّت عن الإدراك
ولم ننظـر بهـا إذ ذاك سوى باهي سنا مَعناك
ففي الأفلاك والأملاك لباهي علاك عيونٌ بالشهود تراك
شذى منه بداالعرفان لأهل الذِكر والتبيان ولمّا أشرق البُرهان رأوا ما لا يرى إنسان
ففي الأذهان مدى الأزمان من الأشجان غرامٌ لم يصفه لسان
بحب اليشرطيّ الأوّاب حديثُ قديمِنا قد طاب وعَنا كلّ شيءٍ غاب سوى ما كان في الألباب
ففي الأعتاب ترى الأحباب أولي الألباب وكلٌ قلبه قد ذاب

ويصف حاله في النشيدة التالية وشدّة الوجد الّذي ألمَّ به، وشوقه لشيخه وعمق المحبّة الّتي يحملها له. هذه الأنشودة مغنّاةٌ، وهي في التصوّف والعشق الإلهيّ وفي الصبابة والمعاناة:

إن جـزت وادي المـنـحـنى بـلّـغـه أنّي حـالي بـوجـدٍ وعـنـا والـعـشـق فـنّي
قلبي تَعَنَّى بالهوى مُـذْ كان سِـنّـي سـبعًا وبـالعشـق اكتوى واصـفرّ لوني
دمـدم وغـنِّ بـالـنـوى يـا ذا المـغـنّي وارو أحاديـث الجوى وجُـد وعُـدني
في صوته الباهي الرخيم سـامي الترنّـي وقـدّه الزاهي القويم هـذا فتـنّي
بالله يا ظبيّ النـقا مـا كان ظنّـي من قطع وصلي واللـقـا أن تـهـجـرَنّي
يكفيك يا حلوَ الرضاب تَـصُـدُّ عنّـي وعـنـد وصلي بالعتاب لا تَـرْدَعَـنّـي
ألبـسـتني يا ابن الكرام ثوب التعنّـي مذ قلتَ لي مُتْ في الغرام لازَمْتُ كِـنّـي
يا سيّد الرسل الكرام جد لـي وعُدنـي ألـفُ صـلاة وسـلام عـلـيـك مِنّي

[31]. اللطائف الروحيّة، 231.

خاتمة

من خلال هذا الغيض من فيض قصائد أبناء الطريقة الّتي سردتها في هذا البحث، يتبيّن أنّ أشعار أبناء الطريقة الشاذليّة اليشرطيّة هي من أرقى الأشعار ذوقًا وحسًّا ومعنًى، يعبّ شذاها كلّ قلب نقيّ طاهر. وهي إلى ذلك، تعكس نظرة فلسفيّة للوجود وللكون والحياة، وترسم أسلوبًا لحياة روحيّة واجتماعيّة مثاليّة، توفّر الأمن والحياة الكريمة السعيدة للفرد وللمجتمعات البشريّة بالمحبّة والتسامح.

أودّ أن أذكر في ختام هذا البحث أنّ شَرْعَ الطريقة هو الشرع المحمّديّ، في قول الشيخ علي نور الدين اليشرطيّ: "منتهى سير الرجال، شرعنا المحمّديّ"، والّذي بنى عليه الشيخ نصوح الجابريّ هذه القصيدة:

قال راوي السّنَـد ناقلًا عن سيِّـدي منتهى سيرِ الرجال شرعُنا المحمّدي[32]

شرعُنا، أهلَ الهوى محوُ أوهامِ السِّـوى إنَّ عَرش الاستـوا منه وُسْـعُ الـمدد
ديـنـنا حبّ وَوُدّ ما لـنـا في الكون ضِدٌّ نـصفح اليـوم لـغـد كأَبٍ للـولـد

تَمَّت

[32] اللطائف الروحيّة، 194.

المصادر

القرآن الكريم.

أبناء الطريقة الشاذليّة اليشرطيّة. **اللطائف الروحيّة**. بيروت: مطبعة الإنصاف، 1997.

الحمصي، عبد القادر. **مولد النبيّ محمّد**. ط.10. د.م.: د.ن.، 1997.

اليشرطيّة، فاطمة. **رحلة إلى الحق**. ط.4. د. م. د. ن. 1997.

اليشرطيّة، فاطمة. **نفحات الحق في الأنفاس العليّة الشاذليّة اليشرطيّة**. ط.4. د.م.: د.ن.، 1997.

المراجع

الجيلي، عبد الكريم. **الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر**. ط.4. د.م.: الفكر، 1975.

الحلّاج، أبوعبد الله، الحسين بن منصور. **ديوان الحلاج**. شرح وتحقيق: هاشم عثمان. بيروت: منشورات مؤسسة النور للمطبوعات، 2003.

الغزالي، أبو حامد. **المنقذ من الضلال**. مجموعة عبد الحليم محمود. ط.2. د.م.: دار الكتاب اللبناني، 1985.